الثقـــــــــافة

للأستاذ عبد الحميد حسنه
المفتش بوزارة المعارف

— ٢ —

أجملنا فى كلمتنا السابقة [١] حقيقة الثقافة وأوضحنا أن عناصرها ثلاثة ، وهى : المعلومات ، والمهارة المقرونة بصقل العقل وشحذ المواهب ، واللباقة فى استخدام الحقائق وحسن عرضها . وقلنا إن العنصر الأساسى فى الثقافة هو المعلومات التى أنتجها المجتمع ، والذخائر العلمية التى خلفتها الأجيال الماضية وصقلتها التجارب حتى أصبح الالمام بها مما لاغنى عنه فى حياتنا العامة .

فالمثقف يجب أن يكون مصقول العقل صافى المواهب لبقا ماهراً يحسن الصوغ والعرض ، ويجب أن يكون ملما بالمعلومات التى لابد منها فى الحياة وفى تبادل التفاهم بين طبقات المتعلمين .

ولنتجه إلى البحث فى العنصر الثالث وهو المعلومات؛ لنضع لها حدودها، ثم نبحث عن مواردها التى تستمد منها .

***

إن الثقافة صفة اجتماعية فى معظم عناصرها، والمعلومات التى تتطلبها الثقافة هى مما أنتجه المجتمع وارتضاه مما له صلة بالحياة وبالشئون العامة ، فهى معلومات ليست بالراكدة، وليست مما هو مهمل فى بطون الكتب وزواياها ، ولا من ذلك النوع الخالى من الحياة أو الذى تسير الحياة وشئونها دون حاجة إليه .

(١) انظر العدد الثالث من السنة الرابعة .

ولا ننسى أن المثقف يحتاج إلى جانب الالمام بهذه الحقائق إلى مقدرة على الانتفاع بها واستخدامها فى مراطنها استخداما يزيد من نشاط الحياة العامة ويتهض بالمستوى العقلى والعملى .

ولعلك تتبين بجلاء مانقصد إذا أنت استمعت إلى حديث فى مجتمع مثقف وإلى حديث فى مجتمع غير تام الثقافة : إنك تجد فى الأول فنونا من القول صافية ، خالية من الغثاثة ومن الجفاف ، مستمدة من الحياة ، شديدة الاتصال بمرافقها ، تميل بك إلى السمو الفكرى ، وتشعر بأنها خلاصة منتقاة من تجارب الإنسانية ، تنير السبيل للعقل ، وترشد المرء إذا أراد استرشادا ، وتغذى قلبه وعقله بغذاء يبعث النشاط ويجعل الحياة خصبة نابضة .

وتجد فى المجتمع الثانى من الخلط وهبوط ألوان الحديث والتوائها وقصورها مايجعلك تدرك الفرق بين المثقفين وغيرهم .

تجد فى مجامع المثقفين حديثا ممتعا فى شتى ألوان المعرفة ذات الصلة بالحياة ، وتسمع تجاذب أطراف البحث فى حقائق تحس بأنها ليست مما تجتره الحياة ولامما هو ضئيل القيمة قليل الجدوى ، بل تجد أصولا عامة صحيحة مطبقة على الحياة ، وتلمح من المعلومات مايمس اللباب فى الشئون العامة ومرافق البلاد .

وإذا تخيلنا مجتمعا مثقفا كالذى نشير إليه ، وكان يضم مثلا المهندس والطبيب والمعلم والقاضى والمحامى والاقتصادى ورجل الأعمال وصاحب المتجر والموظف الإدارى والكتابى وغير هؤلاء ، فإنا نجد من الجميع إلماما بشتى ألوان الحديث . فنجد من المهندس إلماما بالأغذية ومادتها وقيمتها وارتباطها بإنتاج البلاد ، وتجد من الطبيب خبرة بالمدنيات القديمة والحديثة ومراكزها على سطح الكرة الأرضية وصلة بعضها ببعض ، وتجد من المعلم إلماما بالمواد المعدنية فى البلاد ووسائل استخراجها ومدى الانتفاع بها وأثر ذلك فى حياة الشعب ورخائه ، وتسمع من القاضى حديثا فى المبانى وتنسيقها وأنواعها قديما وحديثا وأثر ذلك

فى الذوق السليم وفى حياة الأمة ، وتجد من رجل الأعمال إلماما ببعض الآداب والكتاب الاجتماعيين والقصصيين ، وهكذا تجد لطوائف المثقفين إلماما بالشئون العامة إلى جانب الإلمام بما اختصوا به من علم أو فن أو مابرعوا فيه من النواحى العملية . وتجد إلى جانب هذا منهم جميعا ميلا إلى قراءة مايجد فى عالم الفن والعلم والأدب .

ورب قائل يقول : وماذا يضير الانسان - إذا هو برع فى ناحية من نواحى العلم أو الفن واستقامت له الحياة فى عمل يشغله — ألا يلم بغيره أولا يستطيع التفكير أو التحدث فى الشؤون التى لاصلة لعمله بها ؟ وما للمهندس والشعراء والأدباء ؟ ومالطبيب والقناطر والسدود وأثرها ؟ ومالرجال الجيش والروايات والقصص وأثرهما ؟ مالكل هؤلاء ولهذه المعارف التى لاتمت إلى عملهم بصلة ؟

قد يقال هذا أو شبهه ممن لايعنون بالحياة الاجتماعية ولايرون فائدة لتفهم الإنسان ماحوله ، ولاينظرون إلى وحدة التفكير وتقارب العقول بين أفراد المتعلمين بمنظار الاهتمام .

على أنا لو تدرجنا فى حوار هؤلاء لوصلنا إلى إقناعهم بأنهم ليسوا على صواب فيما يقولون ، فهم لو بحثوا فيما حصلوا قبل أن يتفرغوا للدراسة الخاصة لعلموا أن الذى أعانهم على التحصيل إنما هو قدر من الثقافة العامة صقلوا به عقولهم واستعانوا به على الدرس والتحصيل ، ولولا هذا القدر من المعارف العامة ما استطاعوا تحصيلا ولا استساغوا علما . ولو كان لهؤلاء فوق هذا نصيب من الثقافة الشاملة والالمام بما أخرج المجتمع من معارف لكانت صلتهم به أقوى وفهمهم لما يجرى فيه أعم وأوسع ، وقدرتهم على إفادته أتم . هذا إلى ما للثقافة العامة من أثر فى تبادل التفاهم بين طبقات المتعلمين وتتبع مايجد فى الحياة العامة بما يرتبط برقى بنى الإنسان.

إن الحياة ليست مادة فحسب ، وليست عيشة انعزال وبعد عن المجتمع، ومايجرى فيه ، فالإنسان لاتهنأ له حياة إلا إذا تبادل التفكير هو وأفراد المجتمع الذى يعيش فيه وكان بينه وبين طبقات المتعلمين صلة عقلية . فالثقافة من متعات الحياة الاجتماعيه ، وهى عون على فهم الشئون العامة وعلى خير المجتمع ، والمشرفون على الحياة العقلية والتعليمية فى البلاد هم الذين يوجهون الشعب إلى الوجهة الصحيحة فى الثقافة وإعداد المثقفين .

***

فلنبحث فى موارد الثقافه ومداها :

أما مواردها فهى : المدارس ، والحياة العامة ، والكتب والصحف والمجلات .

(١) المدارس :

أما المدارس فهى معاهد التعليم والتثقيف ، وعليها من واجبات الثقافة نصيب عظيم ، وحين نذكرها تتجلى فى الأذهان أهم ظاهرة فيها ، وهى المادة العلمية المحدودة فى المناهج ، فهى التى اختارها رجال التعليم وارتضاها من فكروا فى المدارس وإنشائها .

ولسنا نريد أن نقصر الغرض من المدرسة على تحصيل المادة العلمية، فالمدرسة إنما هى صورة مصغرة للحياة ، وميدان للنشاط العقلى والنمو الخلقى ، وعون على إعداد الفرد للحياة . ولكننا ونحن بصدد الثقافة والقدر المختار من المعارف العامة لتحقيق معناها — سنقصر بحثنا على المادة العلمية فى مناهج الدراسة ، فهى المظهر الذى ينال عناية الطالب والمعلم ، وهى الوسيلة الظاهرة للتحصيل .

ولكى نجلو طريق البحث يجدر بنا أن نحدد الغرض من المدرسة ومافيها من مناهج: أهو الاعداد للحياة ؟ أم هو تزوير المتعلم بطائفه من الحقائق العلمية؟ وعلى أى أساس تختار هذه الحقائق ؟ أعلى أساس الحاجة إليها فى الحياة ؟ أم

على أساس الاستعانة بها على الثقافة ؟ أم على أساس أنها علوم جرت العادة باختيارها أو اختيار عناصرها؟ أم أن الاختيار أساسه ضرورة هذه العلوم لمراحل تالية من مراحل التعليم ؟ أم أن الغاية من هذه الحقائق هو شحذ العقل وتغذيته وتنميته ؟ أم أنها غاية تجمع بين كل هذا أو بعضه ؟

كل هذه أسئلة تجول بالخاطر حين البحث فى الثقافة ونصيب المدارس وموادها الدراسية منها ، ولعل مدرسة ماترى أن الثقافة لاتعنيها ، وأنها إنما تدرس المواد المختلفة لغايات أخرى ، وأن الثقافة يجب أن تلتمس فى ميدان آخر .

قد يكون شيء من هذا ، وللمدارس أن تحدد وجهتها كما تشاء ، ولكننا لانبعد عن الصواب إذا قلنا إن الغرض من المدرسة إنما هو إعداد الفرد للحياة. وإن المواد الدراسية التى تختار فى المراحل الاعدادية من المدارس إنما تختار لأنها عون على إعداد الفرد للحياة . ولأنها لازمة لمعاملة الافراد وتفاهمهم وتعاونهم ، وليس الغرض منها أن نميل بالفرد إلى التخصص فى مادة معينة . فالمعلوم أن مدارسنا الابتدائية والثانوية فى مرحلة الثقافة العامة إنما تعد الفرد إعدادا عاما يشترك فيه من يستعدون للدراسة العالية ومن عساهم أن يتجهوا بعد ذلك إلى الحياة العامة ، ولا بغية لهم سوى الثقافة والاستعداد للعمل فى الحياة. وإن كنا لانجادل فى أن الذين يذهبون إلى هذا النوع من المدارس فى بلادنا إنما يقصدون إتمام تعليمهم العالى إن ساعدهم الحظ ، والسير فى هذه المراحل التقليدية التى ألفناها رغبة فى الوظائف أو نحوها من المناصب المحدودة .

ولكن هذا لايمنعنا من أن نقرر الحقيقة الثابتة أو التى يجب أن تكون ثابتة ، وهى أن الغرض من هذه المرحلة إنما هو الثقافة لا التخصص . اللهم إلا إذا كنا نستكثر على الثقافة هذا الزمن الذى يصرفه الطالب فى المدارس الثانوية فنلجأ إلى مزج مرحلة الثقافة بشيء من التخصص لكى نعده للدراسة العالية فى جميع الفروع .

على أنه مهما تكن الغاية من مرحلة الثقافة العامة فى مدارسنا، فإنه يحق لنا أن نتجه إليها فى تحقيق ماتتطلب الثقافة من القسط المدرسى منها .

فلننظر إلى المناهج فى هذه المراحل على أساس أنها مراحل ثقافة وإعداد عام للحياة . ننظر إليها من حيث أنها الجانب الأساسى فى الثقافة ، وإن لم تكن هى الكفيلة بكل ماتتطلب الثقافة ، ونتجه فى البحث إلى معرفة ما هنالك من من صلة بين ماتضمنته هذه المناهج وبين الثقافة ؛ لنعلم هل هذه الحقائق لازمة للمثقف وللثقافة ، وهل قصرت المناهج فيما كان يجب أن تتضمنه مما لابد منه للمثقف ، أى أننا سننظر للموضوع من ناحيتين : الأولى إيجابية وهى مااشتملت عليه المناهج ، والثانية سلبية وهى ماأهملته:

(ا) الناحية الأولى :

لانتكر أن فى هذه المناهج قدرا من الحقائق التى لاغنى عنها ، ولكنا إلى جانب هذا نلاحظ أن طائفة منها قد دونت لالغرض ثقافى ، بل تمشيا مع ظاهرة متغلغلة فى مناهجنا ، وهى أنها تسير على نمط الكتب المسطورة ، وعلى النهج الذى تدون عليه العلوم ؛ فهى فى بعض مظاهرها أقرب إلى فهارس الكتب ، أو إلى تمثيل التدرج المنطقى فى تدوين العلوم والفنون . ولقد سار واضعو المناهج طبقا لهذا ، فاستقر اختيارهم على حقائق ثابتة لم يغيروا منها كثيرا فى الأحوال التى تعاقبت على المناهج وهيأت الفرص للتغيير والتنقيح فيها . وكان جل مايعملون ، أن يتقدموا موضوعا على آخر ، أو أن ينقلوا مبحثا من فرقة إلى أخرى .

ولقد كان الأجدى أن نراعى فى تخير الحقائق فى المناهج مايجب اتباعه من القواعد السائدة فى جميع الممالك ، فنسير على حسب عقول المتعلمين وحاجاتهم ، وحاجات المجتمع الذى يعيشون فيه ، وبذلك نحقق من الأغراض التعليمية والثقافية قسطا عظيما . أما سرد الحقائق العلمية على أساس أنها قد سطرت فى

الكتب وأصبحت من العناصر المتممة لتدوين العلم تدوينا فنيا متماسكا ، فهذا بناء على أساس غير صحيح ، لامن الوجهة التعليمية ، ولامن الوجهة الثقافية ؛ فأصول التعليم تجعل الأساس فى تخير المناهج حاجة الفرد وتغذية عقله وتنمية خلقه وإعداده للحياة ، وحاجة المجتمع والعمل على خيره ورخائه ؛ والثقافة كما رأينا تتطلب تخير الحقائق على أساس فائدتها فى المجتمع ، لاتسلسلها العلمى وتماسكها من جهة فن التأليف والتسطير .

قلنا إن مناهجنا قد سيطرت عليها ظاهرة التأليف العلمى فجعلتها أشبه بفهارس الكتب وأبعدتها عن الوفاء بالغرض التعليمى والثقافى ، حتى أصبح قسط منها عبئا على عقول المتعلمين لايجنون منه نفعا ذا أثر . ولنضرب الأمثلة لما أشرنا إليه :

فى منهج قواعد اللغة العربية نجد البدء بالكلمة ، ثم تقسيمها إلى اسم وفعل وحرف ، وتقسيم كل من هذه أقساما من جهات شتى صرفية ونحوية . نجد هذه الظاهرة فى منهج المدارس الابتدائية وفى منهج المدارس الثانوية كذلك . ولايخفى أن هذا إسراف لايتطلبه الغرض الذى من أجله تدرس القواعد فى هذه المدارس .

ونرى أيضا فى منهج الأدب حرصا على دراسة التاريخ الأدبى لجميع العصور لايفسح المجال لدراسة الأدب نفسه والاستفادة منه .

وفى منهج التربية الوطنية تتجلى ظاهرة التسلسل العلمى . فترى البدء بالمجتمع ، ثم الأسرة ، ثم الأمة ، ثم الدولة ، مع التعرض فى خلال ذلك لنقط من البحث هى أشبه بعناصر لكتاب مؤلف ، ولو اقتصر على مايجب أن يعرفه الفرد من المعلومات المتصلة بالمجتمع وبالحياة لكان أجدى .

وفى منهج الجغرافية نلمح الحرص على دراسة القارات جميعها دراسة تتضمن من التفصيل فى الجغرافيا الطبيعية وغيرها ماليس بينه وبين حياة الطالب المصرى

كبير اتصال ؛ فنرى مثلا دراسة استراليا وجزائر المحيط الهادى من حيث ، التضاريس والمناخ والأقاليم النباتية والطبيعية ، ونجد مثل ذلك فى أمريكا الجنوبية وأمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى وفى آسيا وأفريقية،ونجد إلى جانب ذلك دراسة الأقاليم الطبيعية الرئيسية ، وأهم مميزاتها فى جميع هذه القارات ، مع العناية بدراسة أقاليم خاصة فيها والاشارة إلى مافيها من وسائل النقل والأقسام السياسية التى يشملها كل إقليم .

ولا نظن أن الطالب المصرى يحتاج فى حياته إلى كل هذا التفصيل ، ولعله أشد حاجة إلى الافاضة فيما يتصل بحياتنا منه .

ونرى فى التاريخ مثل هذه الافاضة ، وكذلك فى بعض المواد الأخرى .

(ب) الناحية الثانية :

وهى ماأهملته المناهج ، وإنا نرى إلى جانب التفصيل الذى أشرنا إليه فى بعض المواد الدراسة أو معظمها أن المناهج لا تكفل للطالب الالمام بأمثال الموضوعات الآتية :

الشركات الأجنبية فى مصر — الشركات المصرية — المصارف المالية وعملها وأثرها — المصانع الأجنبية فى مصر — الفنادق — المطابع ومسابك الحروف — المعادن فى مصر واستخراجها — العقاقير الطبية وشركاتها — الحفر على المعادن — الجمعيات العلمية فى مصر — المياه المعدنية — الأجانب فى مصر وحياتهم وأعمالهم — الملاجىء — البواخر المصرية — إلى غير ذلك .

ولعل القارىء يرى أن هذه الموضوعات وأشباهها مما يجدر بالمتعلم أن يلم به ، فإذا كانت المواد الدراسية تتحمل البحث فيها فالأجدى أن نؤثرها على غيرها وإذا لم تكن فمن الميسور أن نتحين لها الفرص ، ولا يثنينا عن تخيرها أنها ليست من العناصر التى ألفنا اختيارها من مباحث العلوم ، اللهم إلا

إذا تمسكنا فى وضع المناهج بتلك الظاهرة التى أشرنا إليها ، وهى السير طبقا للكتب وفهارسها ، والعلوم وعناصرها المدونة تدوينا متماسكا .

على أن عدم تماسك هذه المباحث تماسكا تأليفيا قد يكون من الأسباب التى تدعونا إلى اختيارها مادامت متصلة بالحياة ، وذلك أن من الطرق الحديثة للتعليم الآن « طريقة المشروع » وهى طريقة لا تسير فى التدريس طبقا لتبويب العلوم وفصل موضوعاتها بعضها عن بعض ، بل تبعا لتماسك المعلومات وارتباطها بالحياة ، واتصالها بالموضوع الأساسى الذى اختير للمشروع . فهل لنا أن نرى مثل ذلك فى منهج القسم الابتدائى ومنهج القسم الثانوى ؟

هذه هى مناهجنا ، ولعلنا مقتنعون بأنها فى حاجة إلى التغيير ، لا على أساس التقديم والتأخير والحذف فى أجزائها وموضوعاتها ، بل على الأسس التعليمية السليمة التى تكفل التربية الصحيحة ، وذلك بإبقاء النافع المتصل بالحياة منها ، وإضافة ما تتطلبه بيئتنا ، مع اجتناب ذلك التكديس الذى لا يجنى منه سوى الإرهاق ؛ وبهذا نحقق للحياة معناها ، وللدراسة والتعليم غايتهما الصحيحة ، وللثقافة نصيبها الذى يجب أن تقوم به معاهد التعليم .

ولعلنا لو خلصنا المناهج من هذا التكديس غير المجدى ، لظفرنا بقسط من الزمن نستطيع أن نشغل الطلاب فيه بالبحث الشخصى والاطلاع المقرون بالرغبة ، وأن نملأه بموضوعات عامة يجد المتعلم فيها ميدانا حرا فسيحا ، فتزداد رغبته فى القراءة ، ويعتاد ذلك بعد إتمام دراسته وفى أوقات فراغه ، وبهذا نعالج نقصا لا يزال فاشيا بين أكثر المتعلمين ، وهو النفور من القراءة والاطلاع ، ونؤدى واجبا تعليميا يرى الجميع أن المدارس ونظم التعليم هى التى تتحمل تبعته ، وهو غرس الميل إلى القراءة فى المتعلمين .

(٢) الحياة العامة :

لسنا فى شك أن الحياة العامة لها شأن فى الغذاء الثقافى ؛ فالبيئة ومافيها من أحاديث حيوية ومحاضرات علمية ومغريات بالتسابق إلى الاطلاع والميل إلى البحث ، والمجتمع وميوله ونظامه فى صرف أوقات الفراغ فى المنزل وفى خارجه، والملاهى وأنواعها ، والحفلات العامة وغير ذلك ، كل هذا من عوامل صقل الحياة وإنهاضها والسمو بالمعارف العامة للشعب وبمعلوماته .

وإن ترقية هذا الجانب من حياتنا المصرية يتطلب عناية المصلحين من رجال الاجتماع والتربية ، والاهتمام بهذه الناحية لايقل أثرا عن الاهتمام بالمناهج ولجانها ودور التعليم وأدواتها وكتبها .

(٣) الكتب والصحف والمجلات والروايات :

أو بعبارة أخرى المؤلفون والكتاب : فهؤلاء هم قادة الفكر وحافزو الهمم ، وهم الذين يمدون الحياة العقلية بمايزيدها خصبا ، ويوجهون أفراد الشعب إلى مايزيد ثقافتهم وينهض بأذواقهم ويحبب إليهم القراءة فيقضون أوقات الفراغ على خير الوجوه .

وللمؤلفين والكتاب شأن فى تمصير ثقافتنا، وإنهاض أدبنا القومى المصرى، وتنشيط الحياة العقلية والفكرية، وهذا مما يجعل أثرهم عظيما؛ وإن العناية بهم وبتشجيعهم تتطلب من أولى الشأن فى البلاد جانبا من الاهتمام لتجنى البلاد ماتنشد من خير

***

وبعد فإن منابع الثقافة فى مصر تتطلب إصلاحا ونهضة على الأسس التى سارت عليها الأمم التى نترسم خطاها فى الثقافة .

وإنا لنرقب أن ينشط هذا الإصلاح نشاطا شاملا، حتى يكون لهذا البلد ثقافة مطبوعة بالطابع القومى وذلك بما يبذل قادة الرأى من همة وعزم صادق فى هذا الشأن .

عبد الحميد حسن